مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 11 عدد: 2 السنة: 2022
ص: 313 - 327 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

أسس البحث اللغوي بين علوم اللغة العربية واللسانيات العامة

The Fundamentals of Language Research Between Arabic Langue sciences and General Linguistics

Dr. ibrahim bachar / د. إبراهيم بشار*

مخبر اللّسانيات واللغة العربية

جامعة محمد خيضر/بسكرة (الجزائر)

University Mohamed Khider /Biskra (algeria)

Ibrahim.bachar@univ-biskra.dz

تاريخ الإرسال: 2022/02/25	تاريخ القبول: 2022/04/26	تاريخ النشر: 2022/06/02

مُلخّص البحث

نسعى في هذا المقال إلى مقاربة أساسيات المنهج في الدرس اللغوي العربي القديم من جهة، وفي للسانيات العامة من جهة أخرى؛ بغيةَ تبيين اختلاف السياقات الثقافية والتاريخية والعلمية التي أفرزت العلوم التي رامت الدقة في دراسة اللغة قديما عند العرب وحديثا مع فرديناند دوسوسير، وتلافينا الوقوف عند إشكالية الأصالة في المنهج العلمي، التي تبقى هاجسا يُحْرِج الدارسين العربَ ويوقعهم في حالة ارتباك، خصوصا إذا تعلّق الأمرُ بالعلوم الأدبية واللغوية؛ إذ نجدُ بعضَ المعاصرين منبهرين بالميتودولوجيا الغربية، يقذفون أسهمَ الاتّهام إلى التراث العربي، ويصرّون على افتقادِه دقةَ المنهج العلمي، ويقيسونه على أساس اللسانيات حاملةِ الريّادةِ المنهجية والدقة العلمية إلى مختلف العلوم الإنسانية. وفي المقابل هناك صنف من الباحثين، ظلّ متوجّسا من اللسانيات ومقدّسا للتراث، يردِّد في دواخله مقولة التيار السلفي العؤدَوي: "ما ترك الأول للآخر شيئا"، وفي خضم هذا وذاك نسيئ إلى تاريخنا وحاضرنا. فلا تراثنا اللغوي مستعد للإجابة عن أسئلة الحاضر، ولا اللسانيات بمنطقنا التوجّسي ومنهجنا الإسقاطي قادرة على النهوض بلغتنا العربية.

في هذا السياق يندرج مقالنا، الذي أردنا من خلاله الإجابة عن إشكالية إبستيمية أساسية مفادها: فيم تتجلّى خصوصيات المنهج في البحث اللغوي في علوم اللغة العربية من جهة وفي اللسانيات العامة من جهة أخرى؟ وكيف حدّد العلماء العرب الأوائل طرائق دراستهم للغة جمعا وتقعيدا؟ وما أبرز مظاهر الدقة العلمية التي سطّرها اللسانيون في وصف اللغة وتفسيرها؟

الكلمات المفتاحية: منهج، لغة عربية، لسانيات، نحو، علمية.

* د. إبراهيم بشار: Ibrahim.bachar@univ-biskra.dz

Abstract

In this article, we seek approach of The Fundamentals of method in language research in Arabic language sciences and general linguistics. This is in order to show the different cultural, historical and scientific contexts that produced sciences that aimed at reaching accuracy in the study of language in the past among the Arabs and recently with Ferdinand de Saussure the problem of originality in the scientific method remains an obsessi on that embarrasses Arab scholars and puts them in a state of confusion, especially when it comes to literary and linguistic sciences, where you find some contemporaries fascinated by Western methodology. They throw accusations against the Arab heritage and insist on its lack of an accurate scientific method. They also measure it on the basis of linguistics that bears the pioneering method and scientific accuracy in different human sciences. On the other hand, you will find a class of researchers who are apprehensive about linguistics and sanctifying heritage, repeating within it the saying of traditional trend: "The first left nothing to the last". In the midst of this and that, we are understimating our history and our present. Neither our linguistic heritage is ready to answer the questions of the present, nor is linguistics with our apprehensive logic and projective approach capable of advancing our Arabic language.

In this context, we wanted in our article to answer a basic epistemic problematic: What are the peculiarities of the method in linguistic research in Arabic language sciences on the one hand, and in general linguistics on the other hand? And how did the early Arab scholars define the methods of their studies of language as a whole? and what are the most prominent manifestations of scientific accuracy that linguists have written in describing and interpreting language

Keywords: method, Arabic language, linguistics, grammar, scientific.

تمهيد

ارتبطت دراسة اللغة عند مختلف الأمم بالكتاب المقدّس فهما وأداءً وحفظا، مما جعلها تصطبغ بالبعد الديني وتنأى عن الاستقلالية والشمولية، وقد ازدهرت تلك الدراسات أيّما ازدهار خصوصا عند الهنود والصينيين وعند العرب المسلمين، بل كانت المعين الأوّل الذي اغترف منها علماء اللغة في العصر الحديث، مثلما تطالعنا بذلك البحوث المقارنة والتاريخية في القرن التاسع عشر، التي قام بها النحاة الألمان والمبشّرون المسيحيون خصوصا في الهند.

وبغض النظر عن جدلية القطيعة والاستمرارية بين الدرس اللغوي القديم والدرس الحديث فإننا اخترنا تتبُّع الأسس المعرفية التي سطّرت منهج دراسة اللغة العربية قديما، حتى نرصد الإشكاليات الإبستيمية والعلمية، ثم نقف عند المنهج الذي رسمه فرديناند دوسوسير (De Saussure)، للوصول بدراسة اللغة المعينة (اللسان) إلى العلمية والعالمية (دراسة مختلف الألسنة). وإلى أيّ مدى تحقّق ذلك؟

ولتحقيق ذلك الهدف، اقتضى منّا ذلك التطرّق إلى العناصر الآتية:

- الأسس المنهجية والمعرفية لتقعيد علوم اللغة العربية.
- قراءة نقدية.
- أصول المنهج اللساني عند الغربيين.
- خاتمة.

أولا/ الأسس المنهجية والمعرفية لتقعيد علوم اللغة العربية:

عندما نتكلم عن علوم اللغة العربية فإننا نقصد علم الأصوات علم الصرف وعلم النحو وعلم البلاغة (بالخصوص علم المعاني) وفقه اللغة والمعجمية. وهذه العلوم نشأت متداخلة متكاملة في إطار ما اصْطُلِحَ عليه علم العربية، ثم نزعت إلى الاستقلال تدريجيا؛ فعلم الأصوات مثلا كان مبثوثا في عدة علوم:

- المعجمية (كتاب العين للفراهيدي، التهذيب للأزهري، البارع لأبي علي القالي...)
- النحو والصرف (الكتاب لسيبويه، سر صناعة الإعراب لابن جني...)
- مختلف كتب القراءات.
- البلاغة (سر الفصاحة للخفاجي)

وعلماء العربية على اختلاف مذاهبهم وتنوع دراساتهم ظلوا مشدودين إلى ذلك القديم المقدّس من اللغة؛ وكانوا يرون فيه الكمال والرقي، إذ على الرغم من تباين علوم اللغة في كيفية التعامل مع تلك النصوص الشفوية في العصرين الجاهلي والإسلامي إلا أن النحو والصرف والبلاغة والمعجمية تأسست على قواعد عامة تُمجِّد القديم من النصوص وتحذر من كل جديد وافد وتستنكف عن الاعتماد عليه خصوصا إذا خالف ذلك القديمَ بنيةً أو دلالةً.

اللغويون قد تبنوا أصولا منهجية صارمة في جمع اللغة والاحتجاج بها، مرتبطة بالإطار الزماني والإطار المكاني، ووضعوا شروطا للرواية والدراية، وحددوا مقاييس للاطراد وللشذوذ وللقياس والإجماع، وبلغ علم النحو من الدقة ما يفضي به إلى تنظيم العقل وتحديد عملياته. أما البلاغيون العرب فاتخذوا منهجا منفتحا مرنا يتناسب مع الطبيعة الإبداعية للغة، ويتجدد بما تمليه المقامات التواصلية قبل أن تأوي البلاغة كذلك إلى قوالب جاهزة وقوانين جامدة فرضته علمية البلاغة.

كان العربي يدرك قيمة اللغة ومركزيتها في الحياة، ويستشهد بالشعر والخطابة؛ لأنهما مظهران خطابيان يمثلان الإمتاع والإقناع في اللغة. ولم يكن هناك داعٍ اجتماعي أو علمي لتقعيد اللغة، فهي تُنْطَق بالسليقة ويتلقاها العربي كما يتلقى الرضيع حليب أمه، وظلّت كذلك حتى مجيء الإسلام؛ حيث حدثت متّغيراتٌ دينية واجتماعية وسياسية وعلمية جعلت العلماء يفكرون في ضبط هذه اللغة وتقنينها. حيث اِستُنهضت الهمم للحفاظ على هذه اللغة في نحوها وصرفها ومعجمها وصوتها.

1- القرآن مركز انبثاق علوم اللغة العربية:

توصف الحضارة العربية الإسلامية بأنها حضارة بيانية أكثر منها برهانية وبأنها لغوية أكثر منها عقلية. وهو وصف تنازع في جدواه محمد عابد الجابري وطه عبد الرحمن؛ فاعتبرها الجابري سمة ضعف للعقل العربي على حين استند إليها طه عبد الرحمن في إعادة قراءة التراث بنظرة تداولية. [1]

وبغض النظر عن تلك الجدلية الإبستيمية فقد مثّل القرآنُ الكريم مركزَ الإشعاع الحضاري والعرفي؛ فكلّ العلوم اللغوية تمت إليه بسبب:

ففي سياق نشأة النحو العربي كان الخوف على القرآن من الخطأ في المرفوع والمنصوب في الفاعل والمفعول به وما ينجر عنها من اختلاف في المعاني دافعا أوليا؛ حيث تروي كتبُ النحويين آياتٍ كثيرةً وقع فيها اللحن؛ نذكر منها سماعَ بعض من يقرأ قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة:3] . وذلك بعطف كلمة (الرّسول) على كلمة (المشركين) فيتغير المعنى إلى النقيض؛ أي يصبح المعنى: أن الله بريءٌ من المشركين ومن الرسول صلى الله عليه وسلم.

كما أن خُلُوَّ المصحف العثماني من النقط والشكل أدّى إلى اختلاف الناس في حركات الكلمات، وهو ما أفضى بأبي الأسود الدؤلي إلى أن يضع النقاط ليميز بينها. ثم انبرى النحاة يُقعّدون

للغة العربية بطريقة علمية دقيقة ومنهجية واضحة، فوصلوا للقوانين التي تحكم نظام اللسان العربي، لكنهم وقفوا أمام مخالفة بعض آيات القرآن الكريم للعرف النحوي ليقعوا في مخالفة الاستعمال للوضع.

من هنا فُتِح المجالُ للبلاغة التي احتوت –أول ما احتوتْ– المجاز والإعجاز؛ فالأول جاء ليستوعب ما تركه النحاة والمفسرون؛ إذ شمل الاستعمالُ الأولي للمجاز كلَّ تجاوزٍ في الأنماط التركيبية الأساسية كالحذف والتقديم والتأخير ، وكلَّ تجاوز في الدلالات المركزية أو العرفية إلى الدلالات الثانوية عن طرق الاستعارة والكناية؛ وبهذا مثّلت ثنائية مجاز القرآن وإعجازه المنطلق الأساسي للبلاغيين في تشكيل أطر هذا العلم الواسع، الذي فتح نصوصا كثيرة إقناعية وشعرية ليعجَّ بطائفة غير متناهية من المصطلحات والمفاهيم.

وعلى الرغم من نزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين إلا أنّ كلماتٍ كثيرةً في القرآن الكريم لم يُدرِك معناها الصحابةُ رضوان الله عليهم، حيث تروي كتب السيرة أن عبد الله بن عباس حبر هذه الامة وترجمان قرآنها تصدّر لتفسير القرآن، يأتيه الناس للسؤال عن معاني كلمات غريبة، وكان أكثر من يأتيه رجلا يسمى نافع بن الأزرق؛ حيث بلغت سؤالاته أكثر من مائتي مسألة. وعُدَّت هذه السؤالاتُ البذرة الأولى لانبثاق المعجمية:

– غريب القرآن – غريب الحديث.

– غريب اللغة – رسائل الموضوعات.

– ظهور المعجم المكتمل (معجم العين).

كما لا ننسى ما قام به النصر بن عاصم الليثي في سياق تيسير البحث المعجمي عندما ميّز بين الأحرف المتشابهة في الرسم ورتبها ترتيبا ألفبائيا سارت عليه جلّ المعاجم العربية إلى يومنا هذا.

وفي مقابل هذه القفزة النوعية في الكتابة العربية كان الدرس الصوتي عند العرب مبثوثا في عدة علوم مثل علم تجويد القرآن وعلم القراءات القرآنية فضلا عن المعجم والصرف العروض. وبلغ فيه العرب مكانا عليا؛ حيث عكست القراءات القرآنية تلك التنوّعات الصوتية التي تزخر بها اللهجات العربية كالإمالة والفتح والإدغام والقلقلة والتسهيل والهمز والاختلاس والتلتلة. فكان همُّ المسلم الذي يحفظ القرآن في صدره أن يعرف هذه القضايا المهمةَ المتصلة بلغة القرآن الكريم.

فلقد اكتسبت العربية قدسيتها من القرآن الكريم واختيار خالق اللغات؛ ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَار مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: 68]؛ من هذه النقطة اشتغل علماء فقه اللغة مثل ابن جني وابن فارس والثعالبي على استنباط خصائص هذه اللغة الشريفة في تنوّعاتها الصوتية واشتقاقها الصرفي وإعرابها التقديري ومجازها الفني؛ حتى إنهم تساءلوا عن أصلها وفرعها، فظهرت نظريات فقه اللغة كالتوقيف والاصطلاح.

2- علوم اللغة العربية بين الوصفية والمعيارية:

جدير بالذكر أن أغلب الأمور المنهجية التي سنذكرها استنبطها العلماء المتأخرون من استقرائهم للكتب الأصول في علوم اللغة العربية؛ ولم يصرّح بها اللغويون إلا فيما ندر. فقد كان العربي يتكلم بالسليقة ولم يكن بحاجة إلى تقعيد لغته، ولكن بعد تسلّل العجمة واللحن إلى ديار العرب قرر العلماء تقعيد اللسان العربي نحوا وصرفا ومعجما.

* مصادر الاحتجاج: حدّد العلماء ثلاثة مصادر للاحتجاج: القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام العرب، ووضعوا أصولا منهجية تتعلق بالنقل والناقل (التواتر- بيئة الاحتجاج –عصر الاحتجاج) خاصة نوجزها في:

فعن القرآن قال البغدادي: "كلامه [الله] عز اسمه أفصح كلام وأبلغه، ويجوز الاستشهاد بمتواتره وشاذه."[2] وهذه إشارة إلى حجية القراءات القرآنية صحيحها وشاذها. وحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم حجة فهو أفصح من نطق بالضاد، ثم كلام العرب خصوصا الشعر؛ فقد كان ديوان العرب وترجمان علمهم.

- الإطار الزماني: أو ما عرف بعصر الاحتجاج، وهي الفترة الزمنية التي أخذت منهاالنصوص المحتج بها، تبدأ من شعر أبي ليلى المهلهل تقريبا (100 قبل الإسلام) وينتهي إلى شعر إبراهيم بن هرمة (ت176هـ).
- الإطار المكاني: حرص العلماء على الأخذ من العرب الأقحاح، الذين لم يجاوروا العجم ولم يختلطوا بهم؛ فكانت أكثر القبائل التي أخذوا منها قبائل وسط الجزيرة العربية وشرقها. وقدد حدّدها العلماء في ست قبائل، يقول السيوطي: "كانت قريش أجود العرب انتقادا للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعا، وأكثرها إبانةً عما في النفس.

والذين عنهم نُقِلت اللغة العربية عنهم وبهم اقتُدي وعنهم أُخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد (...) ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين"[3].

ثانيا/ قراءة نقدية:

إن مصدرية نص للتقعيد النحوي تتوقف على ما يتمتع به ذلك النص من فصاحة عالية، وقوة بليغة، فمقتضى ذلك أن يتم تصنيف النصوص، التي تعتبر مصادر للغة، حسب قوتها ودرجة فصاحتها. وإن كان ذلك كذلك، فإنه قد ترجحت لهذه القراءة غياب هذا الجانب المنطقي في حركة التقعيد النحوي؛ مما جعل تصنيف المدارس النحوية التقليدية لمصادر اللغة تصنيفاً غير منضبط؛ فلغة القرآن، التي تعتبر اللغة العربية النموذجية الفصحى، لم يتم استقراؤها استقراء تامّاً، وقُدِّمت عليها لغة قبائل البدو (أكلة اليرابيع) والأشعار مجهولة القائل، يقول ابن حزم: "من النحاة من ينتزع من المقدار الذي يقف عليه من كلام العرب حكماً لفظيا، ويتخذه مذهباً ثم تعرض له آية على خلاف ذلك الحكم، فيأخذ في صرف الآية عن وجهها. ولا عجب أعجب ممن إن وجد لامرئ القيس أو لزهير أو لجرير أو الحطيئة أو الطرّماح، أو لأعرابي أسدي أو سلمي أو تميمي أو من سائر أبناء العرب لفظاً في شعر أو نثر جعله في اللغة ، وقطع به ، ولم يعترض فيه ، ثم إذا وجد لله تعالى خالق اللغات وأهلها كلاماً لم يلتفت إليه، ولا جعله حجة، وجعل يصرفه عن وجهه، ويحرفه عن موضعه، ويتحيل في إحالته عما أوقعه الله عليه".[4]

أما لغة الحديث النبوي ، فقد أُبْعِدَتْ من دائرة الاحتجاج والاستشهاد لأسباب غير علمية ولا منهجية، على الرغم من كون المصطفى – عليه الصلاة والسلام – أفصح من نطق بالضاد، وعلى الرغم من غلبة الفصاحة وقوة البيان على جل الصحب الكرام[5]. فلم يستشهد سيبويه إلا بثمانية أحاديث وكذلك كان موقف الفراء والمبرد والفارسي، وقد اختلف المتأخرون في سبب عزوف القدامى عن الاستشهاد بالحديث:

- جواز نقله بالمعنى مما يفضي إلى عدم ثبات لفظه.
- أغلب رواة الحديث أعاجم ووجود بعض اللحن في الحديث.

لكنّ المعاصرين ردّوا على هذه الدعاوى؛ يقول سعيد الأفغاني:"والقول بأن في رواة الحديث أعاجم ليس بشيء، لأن ذلك يقال في رواة الشعر والنثر اللذين يحتج بهما، فإن فيهم الكثير من الأعاجم؟ وهل في وسعهم أن يذكروا لنا محدثا ممن يعتد بهم يمكن أن يوضع في صف حماد الراوية؟ الذي

كان يكذب ويلحن ويكسر، ومع ذلك لم يتورع الكوفيون ومن نهج منهجهم من الاحتجاج بمروياته، ولكنهم تحرجوا في الاحتجاج بالحديث.[6]

ومهما يكن من أمر، فإن الاستقراء كان ناقصا لم يشمل كل اللهجات العربية، مما أوقع بعض النحويين في التخطيء والأحكام المعيارية المبنية على الاحتكام إلى القاعدة، مهما كانت درجة النص. وقد ناقش هذه القضايا تمام حسان في كتابه: عن المعيارية والوصفية في تقعيد اللغة العربية؛ حيث ردّ بروز النزعة المعيارية في النحو العربي بسبب النحاة، بل أتى بفعل مجموعة من المؤثرات، وكان دورهم أن توسّعوا في تطبيق هذا المنهج، وحكموا قواعدهم في الكلام العربي؛ الأمر الذي دفع بعض النحاة إلى تخطئة العرب في بعض المواطن.

لقد نشأ النحو– في مجمله – معياريا، غايته دفع اللحن الذي بدأ يشيع على ألسنة الموالي وبعض العرب، وكان من الممكن ألا يعبأ أحد بهذا اللحن لولا اعتزاز المسلمين بلغتهم.

غير أن القول بغلبة النزعة المعيارية لا يعني خلو النحو العربي من بعض الملامح الوصفية، التي تتمثل في: رحلة النحاة إلى البادية، ومشافهتهم الأعراب، وتحديد بيئة زمانية، وأخرى مكانية لدراسة اللغة. كما ذكر ذلك تمام حسان، إلا أنه يأخذ عليهم أمرين:

- دراسة اللغة خلال ثلاثة قرون، ولا شك أن اللغة مرت خلال تلك القرون بمراحل عدة في: أصواتها، وصرفها، ونحوها.
- الخلط بين لهجات متعددة، وأخذهم اللغة عن ست قبائل فقط، ثم خلطهم بين مرويات تلك القبائل.

كما أن الحدود الزمنية لم يحترمها كل النحاة؛ فقد وقع شيء من التجاوز عند بعض النحاة غالبا؛ فقد استشهدوا بشعر جذيمة الأبرش وأعصر بن سعد، وهؤلاء عاشوا في القرن الرابع قبل الإسلام، وشعرهم مشكوك في صحته وفي نسبته، وحتى لو كانوا قد قالوا شعرا فإنه يخالف ما عرف في بيئة الحجاز قبيل الإسلام.[7]

ثم إن المشافهة التّي كانتْ هي قناة التواصل المهيمنة في حضارتنا العربية؛ إذ لم يدوّن العربي في العصر الجاهلي إلا بعض الصكوك والأحلاف وقليلا من الشعر، وعلى الرغم من بداية التدوين الفعلية مع القرآن الكريم، إلا أن الرواية الشفوية للشعر الجاهلي وشعر صدر الإسلام ولغة الأعراب –كما أسلفنا– كانت هي المعين الذي اغترف من اللغويون لتقعيد اللغة العربية، مما أثّر ذلك كثيرا في بلورة قواعد

اللغة، وفتح المجال أمام المشككين. فقوة الحفظ ليست أسا منهجيا تطمئن إليه الحقيقة؛ وقد نصَّ الجاحظ، وهو في سياق الحديث عن المفاضلة بين اللفظ والخط، عن بعض الهنات المحتملة في المشافهة أو المرويات الشفوية: "القلم أبقى أثرا واللسان أكثر هذرا"، وقالوا: اللسان مقصور على القريب الحاضر والقلم مطلق في الشاهد والغائب، وهو للغابر الكائن مثله للقائم الراهن، والكتاب يقرأ بكل مكان ويدرس في كل زمان، واللسان لا يعدو سامعه، ولا يتجاوزه إلى غيره".[8] ولهذا لا يمكن أن يقرأ تشكيكُ طه حسين في الشعر الجاهلي إلا في إطار الاحتكام إلى المنهج الديكارتي الذي لا يطمئن إلا للمعطيات الموثقة.

وبعيدا عن موقف طه حسين المبالَغ فيه، لو نتأمّل بعض المرويات المنقولة والشواهد المذكورة يَتحسّس الباحث غربتها عن العصر الجاهلي؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر نسوق شاهدا شعريا لامرئ القيس ذِكْر في باب جواز تسكين الحركة الإعرابية لتوالي الحركات، وقد أثار جدلا بين النحويين:[9]

فاليوم أشربْ غيرَ مستحقب * إثمًا من الله ولا واغلِ**

حيث رُوي هذا الشّاهدُ بتسكين الباء، واستند إليه العلماء في تجويز إسكان الحركة الإعرابية في قوله تعالى: (إن الله يأمرُكم أن تذبحوا بقرة) [البقرة 2: 67]. لكن على الرغم من اختلاف العلماء في رواية هذا الشاهد، لم يلتفتوا إلى ضعف المتن، فكيف لرجل عاش في الجاهلية أن يتحدث عن إثم شرب الخمر؟

كما أن التركيز على المرويات الشفوية أفضى إلى الاهتمام بالحركة الإعرابية، وإهمال غيرها من القرائن المساعدة على معرفة المعنى مثل الرتبة والسياق. فضلا عن تأثير النزعة التعليمية على هيمنة البعد الشكلي في تصنيف الأبواب النحوية.

لقد شهد تقعيدُ علوم اللغة العربية، خصوصا في المعجم والصرف والنحو، تحوّلا سلبيا بسبب التقليد؛ فكيف للعلماء المتأخرين أن يوقفوا سيرورة اللغة وتطورها؟ وذلك! باشتراطهم القرونَ الأولى شرطا للاحتجاج، فلم يزد صنّاع المعاجم ومؤلفو الكتب النحوية الشيءَ الكثير، على الرغم من أفول أساليب وأنماط نحوية وتغيّر الدلالات عبر الزمن، فكان هذا سببا لتَغلُّب منطق القاعدة على النص.

لذا فلا غرو أن يصطدم الباحث المعاصر بالتناقض في وسم علم النحو وعلم البلاغة المهمين بالوصفية حينا وبالمعيارية حينا آخر، وبالأصالة تارة وبالتأثير الإغريقي تارة أخرى، بكونهما علمين دقيقين يستندان إلى قواعد وقياس تارة، وبكونهما فنين ذوقيين تارة أخرى. والأمر ناتج عن تواري المنهج خلف الممارسة العملية من جهة، والتباين بين سيرورة اللغة وسيرورة العلوم الواصفة من جهة أخرى.

وبعض بذور هذا الشرخ ليست حادثة؛ بل كانت ضمن خطة التأسيس، خصوصا مع الاستقراء الناقص للهجات القبائل العربية؛ لكن ما زاد الأمرَ حدّةً اكتفاءُ المحدثين بالتقليد؛ ممّا أدّى إلى أن اتُّهمت البلاغة والنحو بالمعيارية، والحقيقة أنه اتهام للبلاغة التقليدية وليس للبلاغة العربية الأصيلة، فما ذنب بلاغتنا من دارسٍ عاش العصرنة بكل معانيها، وتواصل بأجهزة الاتصال الحديثة وتناوحته الخطابات الكثيفة من كل جهة، أن يرمي بكل ذلك جانبا ويقبع يلوك بيتا للشنفرى لو عاش وقتنا لمنه استنفرَ، أو يكرر خطبة للحجاّج مكتفيا بها ليرسّخ في زمن الاختلاف سطوة القوة على كلّ حوار أو حرية.

ثالثا/ اللسانيات العامة – الأسس والمنهج:

- تحديد المشكلات.
- تحديد الموضوع والهدف.
- تحديد المنهج: (الاستقلالية والوصف).

1– تحديد المشكلات:

جدير بالذكر أن اللسانيات لم تنشأ دفعة واحدة؛ بل تأسست بناء على تراكمات عدّة، بداية من القرن التاسع عشر؛ حيث ازدهرت الدراسات اللسانية المقارنة، التي استلهمت من النموذج البيولوجي ونظرية الأنواع علميتها، لإثبات القرابة بين الألسنة خصوصا الهندو أوروبية، فاكتُشفت الأُسَرُ اللغوية، ثم تولّدت الحاجة إلى تتبّع حياة الألسنة وتطورها نضجها وانتكاستها وموتها فرادى؛ فازدرهت اللسانيات التاريخية على ضوء تزايد الاهتمام بعلم التاريخ في تلك الفترة، وقد قطعت أشواطا كبيرة نحو العلمية.

لكن نظرا لظهور المنهج الوصفي وعودة الاهتمام بالبنية الداخلية للغة، طفق الاهتمام يتجه نحو دراسة الظواهر اللغوية في إطار سكوني ثابت ومحدّد، بغية كشف النظام الذي يحكم اللسان في مستوياته الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية. (10)

لقد انبثقت اللسانيات في ضوء مشكلات عويصة، عانى منها الدرس اللساني الغربي، وقد ذكرها جون ليونز (Lyons) من خلال هذه المقارنة بينهما (الدرس اللغوي الغربي واللسانيات):

- تتصف اللسانيات بالاستقلال، وهذا مظهر من مظاهر علميتها، على حين أن النحو التقليدي كان يتصف بالمنطق والفلسفة، بل كان خاضعا لهما.

- تهتم اللسانيات باللغة المنطوقة قبل المكتوبة، على حين أن علوم اللغة التقليدية فعلت العكس.
- تعنى اللسانيات باللهجات، ولا تفضّل الفصحى على غيرها.
- لا تقيم اللسانيات وزنا للفروق بين اللغات البدائية والمتحضرة، كونها أداة تواصل.
- تسعى اللسانيات إلى بناء نظرية لها صفة العموم، يمكن من خلالها دراسة جميع الألسنة ووصفها.
- تدرس اللسانيات اللسان في إطار كلي صوتا وصرفا وتركيبا ودلالةً.[11]

2- تحديد الموضوع والهدف:

تؤكد الدراساتُ الإبستمولوجية الحديثة على أن البحث العلمي السليم يمر بأربع مراحل:

- ملاحظة كل الوقائع وتسجيلها.
- تصنيف هذه الوقائع وتحليلها.
- استخراج المبادئ العامة عن طريق استقراء هذه الوقائع.
- المراقبة التكميلية لهذه المبادئ.[12]

سعى اللسانيون إلى دراسة اللغة دراسة علمية موضوعية، بعيدا عن الأحكام المسبقة والمعايير المفترضة والتخمينات غير المؤصّلة، وهذا الهدف كان صعب التحقق؛ لأنّ اللغةَ ماثلةٌ في عديد الأشياء، وتتداخل فيها مختلف الأبعاد: إنسانية/ اجتماعية/ فردية فضلا عن أنها بنية معقدة متشابكة ذات طبيعة نفسية وذهنية وبيولوجية...

لذا بادر فرديناند دوسوسير إلى التفرقة بين ثلاثة مصطلحات: لغة Langage / لسان Langue/ كلام Parole، حتى يتمكّن من رسم طريقه نحو علمنة الدراسة اللغوية.

ولم يكن التمييز بين اللغة واللسان مشكلا في حد ذاته؛ لرجوعهما إلى طبيعة واحدة، ذلك أن اللغة ظاهرة إنسانية فطرية موجودة بالقوّة، فهي كامنة يولَد بها الإنسان. لهذا كانت الهدف الأصلي للسانيين لولا إغراقها في التجريد والاستبطان؛ حتّى إنّ اللسانيين لما توجهوا إلى ما يمثّلها وهو اللسان، بوصفه نظاما من العلامات يتفق عليه أعضاء الجماعة اللغوية، لم يبحثوا فيما يتميز به اللسان العربي عن

اللسان الإنكليزي أو اللسان الإسباني، وإنما سعوا إلى بناء نظرية لها صفة العموم؛ يمكن من خلالها دراسة جميع الألسنة بوصفها نظما اجتماعية ذات جوهر إنساني موحّد.(13)

وأُبعد الكلامُ والمعنى (الدلالة الخاصة) والفعل التواصلي لعدة اعتبارات: "الفردية، التغيّرية، عدم الاستقلالية، الثانوية." وكانت الجملة الممثّل الشرعي التطبيقي للسان، بصفتها جزءا من ذلك النظام العام، والمتضمن لمختلف البنى اللسانية: "صوتية وصرفية وتركيبية ودلالية".

ويقوم الوصف البنوي للغة على هذه المستويات ولا يتجاوزها، ولا يدخل في جدال مع المعنى الكلامي؛ «لأننا إذا أردنا أن نحدد معنى من المعاني يجب أن تتوافر لدينا معرفة علمية دقيقة عن كل شيء في عالم المتكلم، ولكن مدى المعرفة البشرية محدود جدا بالنسبة لهذا الأمر. نحن لا نستطيع أن نعرف معنى أحد المباني اللغوية بشكل دقيق (...) ليس لدينا طريقة لتعريف كلمة الحب أو الكره (...) ويضيف إليها (...) اختلاف وجهات النظر الخاصة (...) ومن هذه الصعوبات تَعدُّد المواقف التي تُستعمَل فيها الكلمة المراد بيان معناها، ثم نجد الصعوبة الخاصة بمزاج المتكلم وحالته النفسية والثقافية (...) وصعوبة استعمال الكلمات في غير المواقف التي اعتاد أكثرُ الناس استعمالَها فيها».(14) ويفهم من هذا القول أن اللسانيين لم يهملوا المعنى أو انتقصوا من قيمته؛ ولكن تركيزهم كان منصبا على وصف اللغة وكشف النظام الذي يحكمها.

3- المنهج (الاستقلالية والوصف):

إن القطيعة الحاسمة بين اللسانيات والفكر اللغوي القديم، كانت على رأس المتطلبات النظرية والمنهجية التي طرحتها اللسانيات، والمتعلقة أساسا بتحديد الموضوع وضبط المفاهيم والأدوات الإجرائية وتكوين مصطلحية خاصة بها، فضلا عن الرغبة المنهجية في استقلالية اللسانيات ذاتها، والاستفادة من النتائج المتحصل عليها في العلوم الأخرى، سواء أكانت علوما إنسانية أم علوما دقيقة.15

ولم يكن غريبا أن تبنّت دراسةَ اللغة عديدُ العلوم؛ لأن اللغة حاضرة في مختلف أشكال النشاط الإنساني؛ بل لها المركزية في كل تحليل تاريخي أو ديني أو فلسفي أو علمي أو أدبي. وهذه الدراسات كانت استجابة لأهدافها الخاصة؛ لذا اصطبغت بطبيعة تلك العلوم ومناهجها. لكن الأمر زاد حدّةً عندما خضعت اللغة إلى تفسيرات المنطق والفلسفة، وانغمست في أمور متافيزيقية وغيبية؛ مما جعل دوسوسير يدعو إلى استقلالية الأداة والهدف في دراسة اللغة؛ وقد عُبّر عنه فيما بعد بدراسة اللسان في ذاته ومن أجل ذاته (16).

وكان المنهج الوصفي ومقولة الآنية (Synchronic) الآليتين الأساسيتين لتحقيق الاستقلالية؛ فأما الوصف فيقتضي مقاربة الحدث اللغوي دون أحكام مسبقة أو معايير مفترضة؛ بل يتطلب استنباط ذلك النظام من الحدث اللغوي ذاته، وأما الآنيةُ فقدّمت لنا وصفة دقيقة عن التفاعل بين عناصر البنى الإفرادية والتركيبية في حالة من الثبات والاستقرار؛ ممّا أحاد تأثير الزمان على الحدث اللغوي. وكان هذا إيذانا بخصوصية الدرس اللساني في بحثه عن حقيقة الظاهرة اللغوية منعزلةً عن كل شدّ مصطلحي أو منهجي.

ونتيجة لذلك ، لم يلبث الأمر كثيرا حتى شهدنا ميلاد قاموس ثري للسانيات ومنهج علمي رصين بعد أن كانت علوم اللغة تستعير ذلك من علوم أخرى.

خاتمة

يجد المتأملُ علومَ اللغة العربية تداخلا في المواضيع بطريقة تكاملية حينا وبطريقة تلفيقية حينا آخر، ولعل أبرز الإشكاليات التي تخلّلت الأطر المنهجية لتقعيد علوم اللغة العربية نذكر:

- عدم الاعتماد على مفهومي الوضع والاستعمال ممّا أدّى إلى تسرّب النعوت القيمية والمعيارية مثل الشاذ والغريب والحوشي والنادر في مصنفات البلاغة والنحو.
- عدم التمييز بين النحو التعليمي والنحو العلمي أو التخصصي في أمّات كتب اللغة؛ فهذا ابن جني يقرّ بالبعد التعليمي في تعريف النحو "ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة" ليصطدم المتعلم بترف فكري نجم عنه التنافس في التقدير والتأويل والتمحّل في التعليل؛ حتى زلّت في النحو ألسنةٌ وأقلام.
- عدم التمييز بين البلاغة بوصفها جماليةً للكلام وبوصفها علما للخطاب.
- غياب البعد الإبداعي في وصف اللغة والاكتفاء بالتقليد، وهذا ناجم عن هاجس الأفضلية في القرون الأولى، مما جعل علوم اللغة عسيرة وشواهدها غريبة عند الأجيال اللاحقة. إلى درجة أنه على الرغم من كثرة المعاجم في اللغة العربية وتنوّع مدارسها فقد غاب المعجم التاريخي الذي يرصد تطورات اللفظة عبر أزمنة متعاقبة، وتجد الزبيدي، على سبيل المثال لا الحصر، في القرن الثاني عشر الهجري يستنسخ ما ورد في المعاجم الأولى لفظا ودلالةً وشواهدَ غير آبهٍ بحركية اللغة ومسيرة الحضارة.

- التقليد في العصور المتأخرة أفضى إلى وقوع النحو العربي في المعيارية؛ لأنّ النصوص المحتج بها ارتبطت بإطار زماني ومكاني سابق، فعلا سلطان القاعدة وتنافس النحاة في التخطيء بدل وصف نظام اللغة المستعملة.
- وفي مقابل الإشكالات الإبستيمية التي ميّزت بعض الدراسات اللغوية القديمة نجد أغلب الدراسات اللسانية العربية ظلّت تجتر النقاش غير المنتهي حول عظمة التراث أو ضرورة اللسانيات، بدلا من التعامل مع الواقع اللغوي ودراسة اللغة العربية. كما أنّها، ومنذ قرن من الزمن على ظهور اللسانيات، اكتفت جلّ الدارسين بالنقل والترجمة من الآخر، أو السعي نحو إثبات أسبقية القدامى إلى تناول ذلك المفهوم الوافد؛ فلا الفريق الأوّل استطاع أن يوائم بين المناويل اللسانية واللغة العربية، عبر تبيئتها وتحويرها ولا الفريق الثاني المتحفُّظ ضمنيا من اللسانيات، والمتشبّع بتفوق التراث حاول استثمار ذلك الزخم وفق مقتضيات الواقع اللغوي المعاصر؛ "إننا لا نجد تعاملا فعليا مع اللغة العربية في وضعيتها الراهنة وبمعطياتها الجديدة."[17]

وبناء عليه، فالأجدى هو جَعْلِ التراث رافدا من جملة روافد نستثمره في وصف اللغة العربية في العصر الحاضر ومعالجة مشكلاتها بدلا من تلك المقارنات والإسقاطات؛ التي جعلت التراث مادة للدراسة عوضا عن اللغة في حدّ ذاتها.

هوامش:

[1]-للتعمق أكثر ينظر محمد عابد الجابري، نقد العقل العربي، وطه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث.

[2]-البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، (1997)، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط4، 9/1.

[3]-ينظر محمد صالح سالم، أصول النحو- دراسة في فكر ابن الأنباري، (2006)، دار السلام، مصر ط1، ص 53، 254.

[4]-ابن حزم الأندلسي، الفصل في الملل والأهواء والنحل، (1928)/ مطبعة علي صبيح، مصر، ط1، ص 29.

[5]-قطب مصطفى سانو،" قراءة في مصادر التقعيد النحوي"، مجلة المسلم المعاصر،العدد 84، تموز/يوليو 1997، لبنان، الموقع:almuslimalmuaser.org ، تاريخ التصفح:04-03-2019، الساعة: 10:00.

[6]-العسكري، شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف،(1963)تحقيق عبد العزيز أحمد، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ط1، ص 12.

[7]-ينظر محمد خان، أصول النحو العربي، 2012، منشورات مخبر اللسانيات واللغة العربية، مطبعة جامعة محمد خيضر – بسكرة، الجزائر، ط1، ص 37.

[8]-الجاحظ، البيان والتبيين، (2008)، تحقيق درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، ص 59.

[9]-محمد خان، أصول النحو العربي، ص 43.

[10]-ينظر، أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات،(2008)، دار الفكر، دمشق، ط3، ص18، 19.

[11]-المرجع نفسه، ص 15

[12]-مصطفى غلفان، اللسانيات العربية-أسئلة المنهج، (2013)، دار إربد، الأردن، ط1: ، ص18،17.

[13]-ينظر أحمد قدور، مبادئ اللسانيات، ص 16.

[14]-Bloom Field,Language,(1950), New York, P 139,140.

نقلا عن كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في اللسانيات الحديثة،(2001)، مكتبة النهضة المصرية، ط3، ص242، 243.

[15]-مصطفى غلفان، اللسانيات العربية-أسئلة المنهج، ص15.

[16]-ينظر محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، بيروت، ص 49.

[17]- مصطفى غلفان، اللسانيات العربية-دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، رسالة دكتوراه، جامعة عين الشق، الدار البيضاء، المغرب، (دط)، (دت)، ص27.